

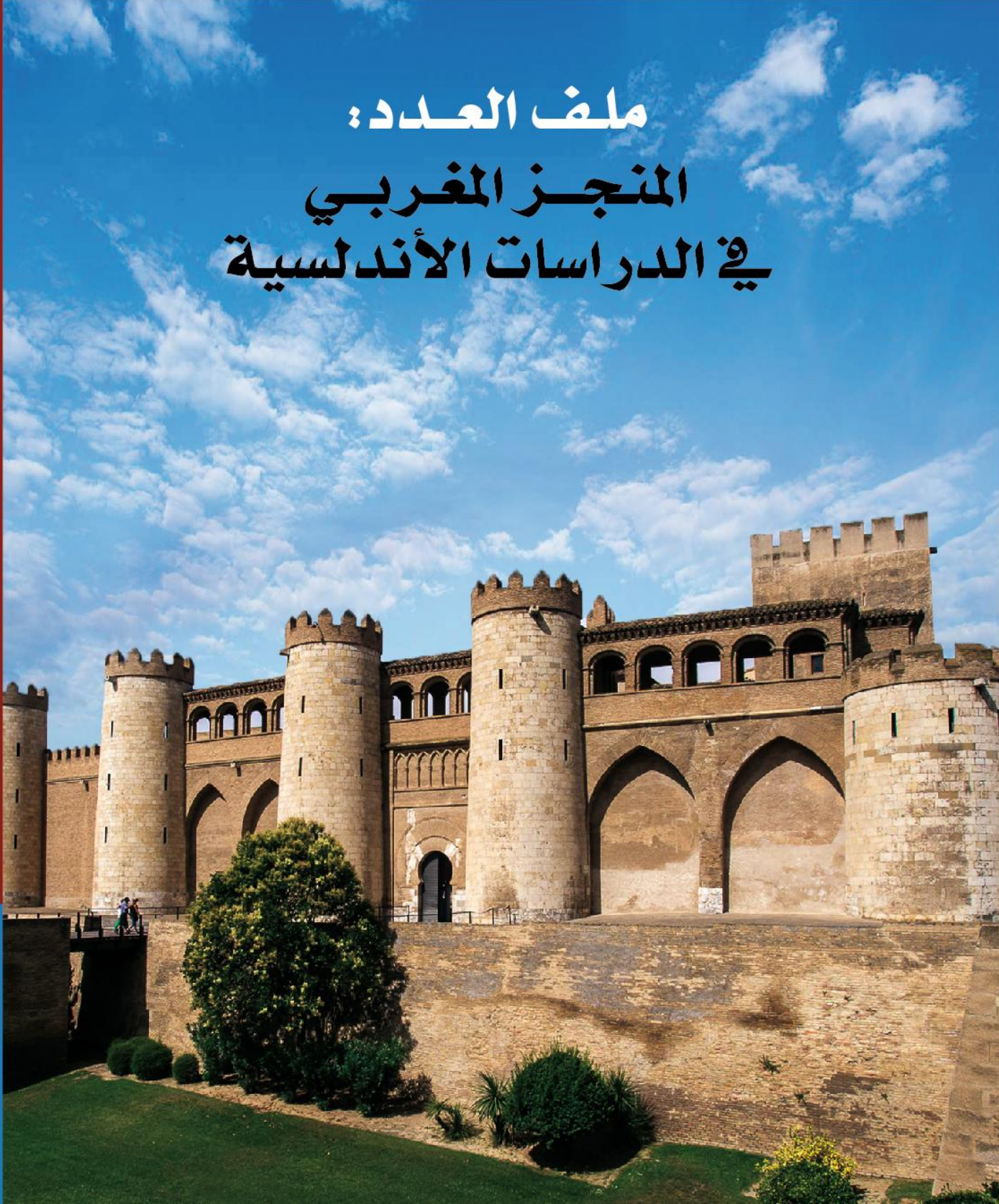
المنهاج

مجلة

مجلة فصلية تصدر عن وزارة الثقافة والشباب والرياضة - قطاع الثقافة

ملف العدد:

المنجز المغربي في الدراسات الأندلسية



المنهاج مجلة

+ ◦ ⊙ ۲ ∶ | + | И С ◦ | ◦ ⊕ Σ И

مجلة فصلية تصدر عن وزارة الثقافة والشباب والرياضة
-قطاع الثقافة-

ملف العدد

المنجز المغربي في الدراسات
الأندلسية

الفهرس

أولاً: ملف العدد: المنجز المغربي في الدراسات الأندلسية

تنسيق وإعداد عبد الواحد أكْمير

عبد الواحد أكْمير

تقديم ملف العدد.....9

المحور الأول: المنجز في الدراسات الأندلسية

جَعْفَرُ ابْنُ الْحَاجِّ السُّلَمِيِّ

الدراسات الأندلسية في المغرب في عهد الحماية (1912-1956م) ونظورها: رصد وتقويم. . . 13

محمد البركة

الرسائل الديوانية الأندلسية، عرض للمنجز المغربي في الجمع والتحقيق 33

أحمد المريني

المنجز المغربي في الدراسات والأبحاث الأندلسية 57

محمد الشريف

الدراسات الأندلسية بتطوان: جذور وبنيات وإشكالات. 77

عبد العزيز بن عبد الجليل

المنجز المغربي في الدراسات الأندلسية الموسيقية 119

السعيد بنفرحي

اهتمام المغاربة بالأدب الأندلسي من خلال مجلة المناهل 143

امحمد بن عبود

الدراسات الأندلسية في إسبانيا 163

المحور الثاني: دراسات تاريخية وتحقيقات

بيير جيثار (مؤرخ فرنسي) ترجمة محمد الشريف

183 من إسبانيا الإسلامية إلى الأندلس

محمد العمراني

215 الموحدون وتديير المجال الحضري بالأندلس: إشبيلية وجبل طارق نموذجا

إبراهيم القادري بوتشيش

تحقيق النصوص الأندلسية المفقودة بالجمع وإعادة البناء:

235 نموذج كتاب "الأنوار الجلية" تحت المجهر

المحور الثالث: الأدب والفلسفة

سعيد بنحمادة

267 أدب العوام بالأندلس من منظور الدراسات المعاصرة: حفريات في السياقات والأنساق

قاسم الحسيني

297 الشعر الأندلسي: الاتجاهات والتجليات

محمد محجوب محمد عبد المجيد

317 مَا تَبَقَّى مِنْ شِعْرِ أَبِي الْقَاسِمِ بْنِ الْعَطَّارِ الْإِشْبِيلِيِّ جمع ودراسة

أحمد زنيير

351 محمد بنشريعة وتأريخ الأدب العربي بالغرب الإسلامي

إبراهيم بورشاشن

363 قصة الفلسفة في الأندلس

محمد المصباحي

ابن رشد و"الموقف العدل" بين الذات والآخر وبين الحكمة والشريعة:

393 ملامح حضور الفكر الفلسفي الأندلسي في الحضارة الإنسانية المعاصرة

المحور الرابع: العلوم والمجتمع

فايزة البوكيلي

الطب والصيدلة عند علماء الأندلس (ق 6هـ/12م): إشراقات نهضة وانبعاث حضارة 417

سناء الشعيري

جوارى الأندلس بين سلطة المعرفة ورهانات الانعتاق 435

هشام البقالي

ممتلكات الطفل الأندلسي خلال عصري الطوائف والمرابطين
من خلال نوازل ابن الحاج التجيبي القرطبي 451

ثانيا: مقالات متنوعة

عبد اللطيف البرينسي وسمير أيت أومغار

الوباء والتاريخ: ملاحظات حول بعض الأوبئة في شمال أفريقيا القديم 469

محمد حقي

المغرب والأندلس في قبضة الوباء 493

خالد عبوي

فنادق مدينة سلا، حضور متميز وتعدد في الوظائف 527

سعيد الفلاق

الرواية وتسريد التاريخ في نثر ما بعد الحداثة 551

أحمد السعيدي

مخطوطات "ألف ليلة وليلة" في المغرب : بيليوغرافيا ودراسة 563

ثالثا: قراءات في كتب

نجاة المريني

روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام

589 الحضرتين مراکش وفاس لأبي العباس أحمد المقري

المحجوب قدار

قراءة وتقديم لكتاب جماعي بعنوان:

595 ألفونسو الثامن ملك قشتالة. الحكومة والأسرة والحرب

محمد مصطفى القباج

قراءة لكتاب (جيسیکا مايا مارجلين)،

603 القضاء المتعدّد: اليهود والمسلمون في المغرب المعاصر (ترجمة خالد بن الصغير)

610 شروط النشر في المجلة

611 موجز بأهم التوجيهات التقنية الإلزامية للنشر في مجلة المناهل

615 مواضيع الملفات القادمة

المغرب والأندلس في قبضة الوباء

محمد حقي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بني ملال

لا يكاد قارئ مصادر المغرب والأندلس يحس أو يشعر بوجود الوباء أو خطورته حيث يمر متسللا ومتخفيا لقللة اهتمامها به واكتفاء بعضها بإشارات سريعة تزرع بين معلومات أخرى قد لا ينتبه إليها القارئ، لكن التمعن الدقيق في نصوصها والبحث في زواياها يكشف عن غول فتاك لا تكاد تمر مرحلة زمنية دون أن يخرج رؤوسه المتعددة لنشر الرعب وإزهاق الأرواح ونشر التباعد وتغيير وجه البلاد ونشر عادات جديدة وخفض ناس ورفع آخرين وإخفاء ذكرى ناس ورفع صيت آخرين. فقد اعتادت البلاد زيارة هذا الضيف الثقيل كل نصف قرن تقريبا مع كل هذه التبعات التي يجرها ويفرضها. وسنعمل على تتبع هذا الموضوع خلال الفترة الممتدة من القرن 3 إلى 11هـ/9 إلى 17م وهي المرحلة التي كان فيها تعامل المغرب والأندلس يتسم ببصمات محلية قبل أن تتسرب العادات الأجنبية. فما هو هذا الوباء؟ وما هي المكانة التي حظي بها في مصادر الفترة؟ وما هي امتداداته الزمنية؟ وما هي المظاهر التي اتخذها؟ وكيف فسره أبناء الفترة؟ وما هي النتائج التي خلفها؟ وكيف واجهه السكان؟ هذه مجموعة أسئلة موجهة لهذا البحث وسنعمل على الإجابة عنها وتطوير مضامينها عبر صفحاته.

1. الامتداد التاريخي للأوبئة

يصادف الباحث في المصادر مجموعة من الكلمات التي يعبر بها عن الأوبئة ومنها: الوباء والطاعون ومطعون وطعن وموبوء ووُبئ، وهي كلها تدور حول الكلمتين الأوليين فماذا تعنيان؟¹

• الوباء

في المعجم العربي الجامع وفي قاموس المعجم الوسيط: الوباء مصدر وُبُوٌّ ووُبِيٌّ ووُبِيٌّ: أصيب بالوباء، وجمعه أوبئة. كلُّ مرضٍ شديد العدوى، سريع الانتشار من مكان إلى آخر، يصيب الإنسان والحيوان والنبات، وعادة ما يكون قاتلا. وفي لسان العرب:² من

¹ نجده حاضرا في القاموس اليومي المغربي مثل لفظة سب على شكل "الوبا" أو "الله يعطيك الوبا".

² ابن منظور، لسان العرب، الجزء 7 (بيروت: دار صادر للطباعة والنشر، 1956)، 189.

وَبئِ يوبأ وُوبئِ ييبأ والجمع أوبئة وأوباء. الوَبأُ: الطاعون وهو كُلُّ مَرَضٍ عام. والوبئ: العليل. وفي المنجد في اللغة:³ من وَبأَ يوبأ وُوبئِ يوبأ وييبأ وُوبئُ يوبئُ، ومنها الوباء وجمعه أوباء وأوبية وهو كل مرض عام. وفي محيط المحيط للبستاني:⁴ "الوبأُ الطاعون أو كل مرض عام". الوباء إذن هو الطاعون وكل مرض عام معد سريع وواسع الانتشار.

• الطاعون

في لسان العرب:⁵ طُعِنَ يطعن الرجل والبعير فهو مطعون وطعين: أصابه الطاعون. الطَّاعُونُ جمعه طواعين. "الطاعون: المرض العام والوباء الذي يفسد له الهواء فتفسد به الأمزجة والأبدان". وفي تكملة المعاجم العربية لدوزي:⁶ طاعون: حبة الوباء. طاعون: ورم حاد خبيث يقتل من ساعة وساعتين وربما طال يوما أو يومين يكون ذلك خلف الأذن وأكثر ما يكون في أوقات الوباء. خراج من جنس الطواعين. طاعون: مجاعة وجذب وقحط. إذن فالطاعون هو الوباء والمرض العام وورم في أنحاء مختلفة من الجسم.

هكذا يلاحظ أن هناك ميلا لجعل الكلمتين مترادفتين، وأنهما تعنيان مرضا عاما مميتا واسع وسريع الانتشار والعدوى، والطاعون أيضا عرض من أعراض الوباء (ورم وقروح في الجسم).

ويواجه الباحث في الموضوع صعوبة كبيرة في الحصول على مادة تاريخية تجيب عن أسئلته لأن المصادر لا تشير إليه إلا عرضا ولا تخصص له؛ في أحسن الأحوال، إلا بضع كلمات أو أسطر تركز على تاريخ وقوعه وكثرة الموتى وظروف دفنهم وانتشار الجوع، وأحيانا تضيف بعض الإجراءات المتخذة في زمانه، وأحيانا أخرى تكتفي بذكر موت بعضهم مطعوناً. أما علاماته وخصوصياته فنادر حضورها. وتنتشر هذه المعلومات في أنواع مختلفة من المصادر تأتي على رأسها كتب التاريخ العام وكتب التراجم والمناقب وكتب الأدب والجغرافيا والرحلات والنوازل الفقهية والطب وغيرها. وتستثنى من قاعدة الندرة وتهميش الموضوع ثلاث رسائل أندلسية⁷ خصصت للطاعون الكبير في منتصف القرن 8هـ/14م لأنها خصصت كلها للموضوع وتضمنت تفاصيل كثيرة عنه؛ بالرغم من

³ المنجد في اللغة، 884.

⁴ بطرس البستاني، محيط المحيط (بيروت: مكتبة لبنان، 1987)، 954.

⁵ ابن منظور، لسان العرب، الجزء 13، 267.

⁶ رينهارت دوزي، تكملة المعاجم العربية، نقله إلى العربية وعلق عليه محمد سليم النعيمي، الجزء 7 (بغداد: وزارة الثقافة والإعلام بالعراق، 1980)، 55.

⁷ ثلاث رسائل أندلسية في الطاعون الجارف، تحقيق محمد حسن (تونس: المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون "بيت الحكمة"، 2013)، 356 صفحة.

غلبة الجانب الطبي عليها، وهي: تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد لأحمد بن خاتمة الأنصاري المريي (ت.770هـ)، ومقنعة السائل عن المرض الهائل لابن الخطيب السلماني الغرناطي (ت.776هـ)، والنصيحة لمحمد بن علي الشقوري (ت.776هـ)، وقد فصل ما ورد فيها في كتاب سماه "تحقيق النبأ عن أمر الوباء"⁸، لكنه مفقود. وكتب أيضا قاضي الجماعة أبو عمران ابن منظور كتاب "وصية الناصح الأود في التحفظ من المرض الوافد إذا وفد" لكنه مفقود.⁹ ولأبي عبد الله محمد بن محمد بن جعفر بن مشتمل الأسلمي البلياني؛ من أهل المرية، المتوفى في آخر سنة 764هـ/1363م، كتاب "إصلاح النية في المسألة الطاعونية"، وهو مخطوط في مكتبة الأزهر بالقاهرة.

ويجب أن ننبه إلى أن الوباء قد يخلط بالجماعة لتشابه أعراضهما، من كثرة المرضى والموتى والموت المفاجئ. وربما يفسر هذا كون إحدى معاني الطاعون عند دوزي الجماعة والجذب والقحط. وقد تنبه إلى ذلك ابن خاتمة في مجاعة عاشها عام 730هـ/1330م بالمرية حيث كثر الموت بفعل الغلاء واضطرار الجوعى من الضعفاء والفقراء إلى أكل حبوب فاسدة قديمة التخزين فكثر فيهم الموت، فسامها الناس وباء.¹⁰

ونظرا لقلة المعطيات فقد جمعنا كل ما وصلنا إليه من أخبار شريطة أن يتوفر فيها شرطا الزمان والمكان، بينما غرضنا الطرف عن معظم الإشارات الواردة في كتب المناقب. وفرغنا هذه المعطيات في الجدول أسفله.

⁸ ثلاث رسائل، 264.

⁹ ثلاث رسائل، 264، الهامش 3.

¹⁰ ثلاث رسائل، 140-141.

| ر.ت. | العصر | السنة | المكان | علامات | اجراءات | الخسائر | المصدر |
|------|-----------------|------------|---|--------|---------|---|--|
| 01 | العصر الأموي | 189هـ/80م | الأندلس | | | جفاف-مجاعة- موت | ذكر بلاد الأندلس وفضلها 131 |
| 02 | | 199هـ/197م | الأندلس | | | جفاف-مجاعة- موت-صدقات الربضي | ذكر بلاد الأندلس وفضلها 131-ابن عذاري 73/2- المقري 319/1 |
| 03 | | 260هـ/87م | الأندلس- المغرب- افريقية-مصر- الحجاز | | | جفاف-جوع- وباء-لصووية | ابن حيان 3-ابن عذاري 2-ابن أي زرع/96-97-ابن القوطية/106-7- قضاة قرطبة/151استق صا 236/1 |
| 04 | | 285هـ/89م | الأندلس- المغرب | | | وباء-مرض-موت كثير-عجز عن الدفن | استقصا 237/1 |
| 05 | | 288هـ/90م | قرطبة | | | مرض كثير-موت خواص كثر-مات عامه بدون عد. | ابن خاتمة/221 |
| 06 | | 303هـ/91م | قرطبة- الأندلس | | | وباء-غلاء-كثرة موت اهل الفاقة-صدقات الناصر | ابن حيان 5/109- 110 و 124 |

| | | | | | | | |
|---|---|--|--|--------------------------------|-------------------------------|--|----|
| استقصا 248/1 وذكر بلاد الأندلس 186 | رخاء مفرط- طاعون-وباء- توبة الناس- ملازمة المساجد | | | المغرب- الاندلس- افريقية | 91/هـ/307 م8 | | 07 |
| ابن الفرضي 215 - ابن خاتمة عن ابن حيان 222-221 | وباء شديد-موت باغت-جزع كبير-موت عدد عظيم | | | قرطبة | 94/هـ/335 م5 ربيع الأول | | 08 |
| ابن الفرضي 40 | | | | طليطلة | 94/هـ/338 م8 | | 09 |
| استقصا 249/1 | وباء عظيم-موت كثير | | | المغرب- الاندلس | 95/هـ/344 م4 | | 10 |
| ذكر بلاد الأندلس 212 | وباء | | | الأندلس | 98/هـ/375 م5 | | 11 |
| استقصا 262/1 | ريح شرقية شديدة-مرض كثير-وباء عظيم | | | المغرب | 98/هـ/379 م9 | | 12 |
| ابن عذارى 106/3- ابن بشكوال 50/1 -ابن خاتمة 222 | فيضان-دمار- وباء-موت واسع-خلاء المدينة-فرار إلى البلدان | | | قرطبة ونواحيها | ذو القعدة 10/هـ/401 م10 | | 13 |
| الانيس المطرب 118 | قحط شديد- مسغبة عامة- وباء | | | المغرب والأندلس وإفريقية | 10/هـ/407 م16 | | 14 |

| | | | | | | | |
|--|-----------------------------------|---|-----------------|--------------------------------------|--|----------------|----|
| ابن عذاري (نص ضائع)مجلة عصور الجديدة 2/10 ص.100 | انعدام القوت- استحكام الوباء | | | بلنسية | 10هـ/486م94 | عصر الطوائف | 15 |
| ابن عذاري 307/1 | غلاء ووباء | | | تلمسان | 11هـ/512م18 | العصر المرابطي | 16 |
| ابن القطان 217 | قحط ووباء | | | فاس | 11هـ/524م30 | | 17 |
| ابن القطان 226 | مجاعة-غلاء- وباء-موتى كثر- لصوصية | | | قرطبة | 11هـ/526م32 | | 18 |
| الانيس المطرب267- الذخيرة السنية- ابن عذاري3/136- التشوف245- المستفاد88 و210-211-الحلل ابوالموشية158- ابن الزبير3/134- استقصا2/151- الإعلام للمراكشي 1 | قتلى كثر من كل الفئات-غلاء- جوع | حفظ الهوية- إغلاق المدينة- مساعدات- أغذية بديلة | موت من غير مرض- | مراكش ونواحيها- فاس-المغرب- الأندلس؟ | ذو القعدة 11هـ/571م76- منتصف 572هـ سنة كاملة | العصر الموحد ي | 19 |
| الانيس المطرب272- الذخيرة السنية49- استقصا 2/262 | الوباء العظيم | | | المغرب- الأندلس | 12هـ/610م13 | | 20 |

| | | | | | | | |
|---|--|--|--|--|----------------------------------|------------------|----|
| ذيل ابن عبد الملك 645: 2/5 | مجاعة-وباء؟ | | | غرناطة | -617 /618هـ م1219 | | 21 |
| استقصا 165/2 | | | | المغرب | 12/628هـ م30 | | 22 |
| الانيس المطرب276- استقصا 264/2 | غلاء-جوع-وباء- خلاء بلاد المغرب | | | المغرب | -630هـ م1232 | | 23 |
| الانيس المطرب277- استقصا 264/2 | غلاء-وباء-اكل الناس بعضهم- عجز عن الدفن | | | المغرب | 12/635هـ م37 | | 24 |
| الانيس المطرب409 | مجاعة-غلاء- وباء عظيم-موت كثير | | | المغرب- إفريقية-مصر | 12/693هـ م95 | | 25 |
| واسع الورود في المصادر خاصة التراجم مقنعة السائل-النصيحة | الطاعون الأسود الجارف-موت شديد كاد يأتي على الخليقة | | حمى- نفث الدم- خراج خلف الاذن وفي الابط والاربية | المغرب- الاندلس- إفريقية-مصر- اقطار الارض | -749 /750هـ -1749 م1750 | العصر المريني | 26 |
| رحلة القلصادي- جدوة الاقتباس535/2 | وباء-وفيات كثيرة-حركة للسلطان | | | بسطة- تلمسان-فاس: وباء عزونة | -844 /846هـ -1440 م1443 | | 27 |

| | | | | | | | |
|--|--|--|---|---|------------------------------------|---------------------|----|
| | | | | (مغرب- أندلس) | | | |
| دوحة الناشر 121 | طاعون | | | تلمسان | 15/هـ906 م00 | | 28 |
| الحضيكي 123/1- استقصا 87/5 | الطاعون الكبير به عرف-وباء | | | تافراوت/سو س-المغرب | -927 /هـ928 م1520 | | 29 |
| دوحة 42 و94- ممتع الأسماع 174- استقصا 39/5 و88 | وباء مشهور عظيم-كسا السهل والجبل- أفنى الإبطال | | | مراكش- تطوان-فاس | -964 /هـ966 -1558 م1559 | | 30 |
| استقصا 191/5 | غلاء شديد-عام البقول | | سعال شديد عام يستمر حتى يموت صاحبه منه | المغرب: سنة كحيكحة | 15/هـ987 م79 | العصر السعد ي | 31 |
| الحضيكي 286- صفوة 102- ممتع 173-نشر المثاني 69/1- استقصا 186/5 | وباء-غلاء-موت كثير في كل الطبقات خاصة من الشباب | | | مراكش-فاس- سوس-زعرير- تادلا-المغرب (السهل والجبل) | -1006 /هـ1016 -1697 م1607 | | 32 |
| نشر المثاني 29/2- 30-الحضيكي 474 | طاعون | | سعال شديد وزكام | فاس-الجزائر | ربيع وخريف | | 33 |

| | | | | | | | |
|---|--|--|--|---|------------------------------------|-----------------|----|
| | | | | | 1054- /1055هـ م1644 | | |
| 112/5- استقصا رحلة العياشي540/2 و538 | وباء كبير-موت كثير-غلاء-جوع- أكل الجيف ولحوم البشر- فراغ حومات | | موت رجال ونساء في الطرق | المغرب- بسكرة-نفطة- الاغواط | 1060هـ/1 م652 | | 34 |
| 83-82- الحضيكي الاعلام بمن غبر259-60-نشر ال مثنائي232/2- سلوك الطريق190- المزايا173-174- الدرر المرصعة- مباحث الولالي223- الضعيف62- استقصا107/7 | دفن في خربات- غلاء-كثرة الموتى- مطر متوالي | منع مولاي اسماعيل عبور سبو- احراق القرى الفارغة بأحواز فاس-منع السفر من فاس الى مكناسة بالقوة والقتل | سقوط وموت مفاجئ -سعال- خروج الرغوة من فم المصاب | تطاوين ومنها شاع-تافيلالت- فاس- شفشاون- فشتالة- مكناسة-ايت عياش-مراكش- تادلا-تنغملت- درعة(تمكروت +)-توات- الصحراء | 1088- /1092هـ -1676 م1680 | العصر العلوي | 35 |
| 333/2- نشر المثنائي الحضيكي200- مباحث الولالي212 | | | | أكثر بلاد المغرب-مراكش | 1096- /1099هـ -1685 م88 | | 36 |

جدول: الأوبئة في المغرب والأندلس

يظهر الجدول مجموعة من الخصائص حول الامتداد الزمني والجغرافي للوباء:

- امتداد زمني على مدى أكثر من تسعة قرون ولم يخل أي واحد منها من وباء مما يعني أن أهل المغرب والأندلس كانوا مستأنسين بالأوبئة بحيث يعيش كل واحد من سكانه في حياته تجربتي وباء على الأقل. وأكد ذلك الوزان عندما كتب: "يظهر الوباء في بلاد البربر على رأس كل عشر سنوات أو خمس عشرة أو خمس وعشرين".¹¹

- كانت القرون 4هـ/10م و6هـ/12م و10هـ/16م و11هـ/11م أكثر القرون وباء،¹² حيث سجلت ما بين أربعة وسبعة أوبئة.

- تميزت بعض الأوبئة بامتداد زمني طويل تراوح ما بين ثلاث وعشر سنوات ويهم الأمر الفترات 335-338هـ و628-635هـ و964-966هـ و1006-1016هـ و1088-1092هـ و1096-1099هـ. وهذا يعني أن الوباء كان يخمد ثم يعود للنشاط أو أنه كان يختفي في منطقة ويظهر في أخرى. ويجب أن ننبه إلى أن بعض الأوبئة لم يتجاوز نشاطها فصلا محددًا.

- لم يكن؛ الوباء في السنوات التي يعم فيها البلاد، يستثني السهل ولا الجبل ولا المناطق الصحراوية الحارة، فكل المناطق تكون عرضة له.

- يعرف الامتداد الجغرافي للأوبئة تباينا واضحا إذ يتراوح بين مدينة واحدة (قرطبة-بلنسية-طليطلة-تلمسان-فاس...) ومنطقة (سوس) وبلد (الأندلس-المغرب) وإقليم (الأندلس وشمال إفريقيا ومصر والحجاز) والمعمور (من الصين إلى المحيط الأطلنطي). ولا يخفى أن شدة الوباء ستشدد أكثر كلما كان واسع الانتشار. ومن الأوبئة التي انتشرت بشكل واسع وباء 260هـ الذي امتد من الأندلس إلى الحجاز، ووباء 307هـ و407هـ اللذان انتشرا ما بين الأندلس وإفريقية، ووباء 693هـ وامتد ما بين المغرب ومصر، ووباء 1060هـ الذي عم كل شمال إفريقيا، وأخيرا وباء 749-750هـ الكوني (الطاعون الأسود) الذي عم كل المعمور المعروف آنذاك من الصين شرقا إلى المحيط الأطلنطي غربا.

¹¹ الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الجزء 1 (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1983)، 85.

¹² يجب أن نتذكر أن الأمر قد يكون مرتبطا فقط بوفرة المعلومات وليس بواقع قائم.

ونستخلص في الأخير أن الوباء بالمغرب والأندلس كان دوريا وقد يستمر لسنين ويغطي منطقة ضيقة فقط أو يتحول إلى جائحة تغطي كل المنطقة الممتدة ما بين الحجاز والأندلس.

2. مظاهر الوباء وأسبابه

لا توفر مصادرنا إلا معلومات بسيطة عن مظاهر الوباء وأسبابه، وعندما تتوفر بعض المعطيات فهي تهتم فقط بعض الأوبئة كما هو ظاهر في الجدول. ويمكن التمييز بين ثلاثة أنواع من المظاهر:

- وباء يسبب موتا مفاجئا بدون أي علامة، وقد كان ذلك في وباء 571-572هـ الذي انتشر في مراكش وفاس ومنطقة تاغيا مقر أبي يعزى الذي مات منه (حسب المراكشي صاحب الإعلام) والغرب؛ وربما، حتى في الأندلس.¹³ وقد كتب عنه ابن أبي زرع: "كان الناس يموتون فيه من غير مرض".¹⁴ وهذا النوع؛ ربما، يدخل ضمن الطاعون الرئوي الذي يتميز بغياب الأعراض الظاهرة والفتك بهرضاه في صمت.

- وباء يسبب سعالا شديدا مستمرا حتى خروج روح المصاب، وقد يكون جزء من النوع الأول. وسجل هذا العرض في وباء 987هـ الذي قال عنه الناصري: "أصاب الناس في بعض فصولها سعال كثير قل من سلم منه، وكان الرجل لا يزال يسعل إلى أن تفيض نفسه، فسمى العامة تلك السنة سنة كحيكحة".¹⁵ وتنطبق هذه الأوصاف على الزكام الموسمي التي يظهر أنه كان شديدا وواسع الانتشار بشكل غير معتاد (قل من سلم منه) مما جعله يصنف وباء. ونفس الشيء قيل عن وباء 1054-1055هـ، حيث "هاج سعال وزكام وتبعه طاعون" في ربيع وخريف 1055هـ.¹⁶ وكان السعال أيضا في طاعون 1088-1092هـ،¹⁷ ويتبعه برغم قوي (رغوة/زبد). وقد ذكر ذلك الزبادي عند وصفه لاحتضار عبد الرحمن بن علي الدرعي بتادلا حيث قال: "كانت الرغاوي تخرج من فم الشيخ عند موته" في ربيع المولد عام 1091هـ.¹⁸

¹³ ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين، تحقيق محمد زنيبر وآخرين (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1985)، 136؛ العباس بن إبراهيم المراكشي، الإعلام بمن حل مراكش وأغامت من الأعلام، مراجعة عبد الوهاب بن منصور، (الرباط: المطبعة الملكية، 1993)، 406.

¹⁴ علي بن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس (الرباط: دار المنصور، 1972)، 267.

¹⁵ أحمد الناصري، الاستقصا في أخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق محمد وجعفر الناصري، الجزء 5 (الدار البيضاء: دار الكتاب، 1997)، 191.

¹⁶ محمد بن الطيب القادري، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، الجزء 2 (الرباط: دار المغرب، 1977)، 29-30.

¹⁷ القادري، نشر المثاني، 232.

¹⁸ محمد الزبادي المنالي، سلوك الطريق الواربية، تحقيق عبد الحي اليملاحي (تطوان: مطبعة الخليج العربي، 2012)، 190.

• وباء يسبب حمى شديدة ونفث الدم وظهور الخراجات والدمامل، وهو ما يسمى بالطاعون الدملي أو العقدي، وهو الأكثر انتشارا وعدوى. وقد كانت هذه خاصيات طاعون 749-750هـ.¹⁹ ويمكن أن يشمل كل الأوبئة التي تنعتها المصادر بالطاعون بحكم أن هذه الدمامل تحمل اسم طاعون، لكن ضعف دقة المصادر يجعل تعميم ذلك أمرا صعبا.

هكذا يمكن أن نقول إن هذه الإشارات القليلة قد قدمت صورة تقريبية عن أنواع الأوبئة التي عرفها المغرب والأندلس وهي: البواء الرئوي الصامت والبواء العقدي الظاهر والأكثر انتشارا وتكرارا والزكام الذي سجلناه بالخصوص في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين.

وبحث الذين اهتموا بالأوبئة عن تحديد أسبابها، وكانوا قبل القرن 8هـ/14م يشيرون عند الحديث عنها إلى هبوب رياح إما سوداء شديدة أو شرقية (307 و379 و1088هـ) تخلف وباء عظيما،²⁰ مما يدفع إلى استنتاج ربط ضمني بين الحدثين. وفي القرن 8هـ/14م كانت الرؤية أكثر وضوحا، حيث حدد ابن خلدون سبب البواء في فساد الهواء بكثرة التعفن والرطوبات الفاسدة الناتجة عن كثرة العمران وتزاحمها وقلة التهوية، وكلما زادت قوة الفساد انتشر البواء أكثر وعم.²¹ ويدقق الشقوري فيقول: "تحقق أن سببه [الطاعون] فساد ميثوث في الهواء المتنافس فيه لذلك أمر الأطباء بإصلاح الهواء، وهو من أكد الأشياء".²² ويضيف ابن الخطيب أنه ينتج عن أسباب فلكية (قرانات فلكية يعرفها أصحاب الصناعة الفلكية) وفساد في الهواء.²³ ويؤكد ذلك ابن خاتمة حيث ينقل أن سببه تغير الهواء وغلبة الحرارة والرطوبة عليه على طول الفصول وتواليها مما تسبب في ارتفاع حرارة الناس بالإضافة إلى سبب فلكي خفي.²⁴

ووجدنا أيضا تلميحات إلى كون البواء مسا جنيا وعقابا ربانيا يسلمه الله على الخلق نتيجة لكثرة ذنوبهم وانتشار الزنا والفساد، وقد فصل الكلام في ذلك ابن حجر العسقلاني والسيوطي.²⁵ ولهذا يتجه الناس في زمانه إلى التوبة وتعمير المساجد والدعاء

¹⁹ ثلاث رسائل، 107-108 و130 و181.

²⁰ مجهول، ذكر بلاد الأندلس، تحقيق لويس مولينا (مدريد: المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، 1983)، 186؛ الناصري، الاستقصا، الجزء 1، 248 و262؛ القادري، نشر المثنائي، الجزء 2، 232.

²¹ عبد الرحمن ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدئ والخبر، ضبط خليل شحادة، الجزء 1 (بيروت: دار الفكر، 2001)، 376.

²² ثلاث رسائل، 255.

²³ ثلاث رسائل، 108.

²⁴ ثلاث رسائل، 146 و131 و134 و139.

²⁵ أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، بذل الماعون في فضل الطاعون، تحقيق أحمد عصام عبد القادر الكاتب (الرياض: دار العاصمة، 1411هـ)، 105-108؛ جلال الدين السيوطي، ما رواه الواعون في أخبار الطاعون، تحقيق محمد علي الباز (دمشق: دار القلم، 1418هـ)، 147-150.

بأدعية محددة. وقد وقع ذلك في الأندلس في وباء 307هـ حين فزع الناس وتابوا إلى الله ولزموا المساجد وتخلوا عن الفواحش رجاء رفع البلاء.²⁶ وأكد أبو العلاء ابن زهر أن الوباء غضب رباني.²⁷ ونظر إليه أهل المرية في وباء 749هـ كغضب من الله لذلك "أظهروا الإنابة ولاحت عليهم شمائل الاستقامة وبسط الله سبحانه أيديهم بالخير، فأطعموا المساكين وبذلوا لهم المعروف، وكسوا العرايا منهم وجهزوا اليتامى، وفكوا الأسارى، والتمسوا من فضل الله سبحانه ما يلتمسه العبد من مولاه الذي لا يجد في الشدة والرجاء سواه".²⁸

وبناء على هذا يكون سبب الوباء فساد الهواء نتيجة التعفن وبعض القرانات الفلكية والغضب الإلهي. لكن انتشاره بعد ذلك يكون بسبب العدوى والاحتكاك بين المرضى والأصحاء وعدم الاحتراز. وقد أثار الموضوع نقاشا حادا بين أهل العصر حيث انقسموا؛ في فهم الأحاديث النبوية، بين النفي والقبول، وقد وجدنا صدى هذا النقاش في سؤالي وردا عند الونشريسي والصفحات التي خصصها له كل من ابن خاتمة وابن الخطيب، وإذا كانت خلاصة الجواب الوارد عند الونشريسي ترجح نفيها، فإن الطبيبين الأندلسيين قد أكدوا ودافعا عن وجودها بقوة.²⁹

3. مخلفات الوباء

يترك الوباء ندوبا عميقة في المجتمع المغربي الأندلسي تهم النزيف السكاني الكبير والأزمة الاقتصادية والأزمة الاجتماعية. وتتفق المصادر التي تحدثت عن الأوبئة على كونها تسبب وفيات ضخمة في السكان، وتختلف تعابيرها عن ذلك بين كلام عام غالب وأرقام جزئية لعدد الموتى. وسنعمل على تتبعها.

ففي وباء 295هـ، بلغ عدد الموتى حدا جعل الناس يعجزون عن دفنهم وكانوا يدفنون عددا منهم في قبر واحد دون غسل ولا صلاة.³⁰ وفي وباء 303هـ "كثرت الموتان في أهل الفاقة والحاجة حتى عجز عن دفنهم (...) فأودى بخلق من وجوه أهل قرطبة وعلمائها وخيارها إلى من مات من أشكالهم ببلاد الأندلس البعيدة ممن لم يأخذ إحصاء

²⁶ مجهول، ذكر بلاد الأندلس، 186؛ الناصري، الاستقصا، الجزء 1، 248.

²⁷ ثلاث رسائل، 141.

²⁸ ثلاث رسائل، 208.

²⁹ ثلاث رسائل، 231-252 و113-115؛ أحمد بن يحيى الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، تحقيق جماعي تحت إشراف محمد حجي، الجزء 11 (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1981)، 252-359.

³⁰ الناصري، الاستقصا، الجزء 1، 237.

ولا اتصلت عدة³¹. وفي وباء 307 هـ عجز عن دفن الموتى³². وفي وباء 344 هـ هلك أكثر الخلق³³. وفي وباء 526 هـ كثر الموتى بقرطبة³⁴. وفي عام 635 هـ "كان يدفن في الحفرة الواحدة المائة من الناس"³⁵. وقيل عن سنة 693 هـ "هلك فيها خلق كثير"³⁶. وأفنى وباء 1006-1016 هـ أعيان مراكش وتارودانت وخاصة شبابهم ونشر الخراب³⁷. وفي وباء 1060 هـ "كان الناس يموتون في كل طريق رجلا ونساء"³⁸. ويظهر جليا أن هذه النصوص عامة وغير دقيقة ولكنها؛ في نفس الوقت، تعبر عن النزيف البشري الذي تخلفه الأوبئة، وهي وإن كانت لا تعطينا أرقاما دقيقة فهي تقربنا من هول ما يحصل. ولحسن حظنا فقد وجدنا بعض المعطيات الرقمية التي قد تقربنا أكثر من الحقيقة.

ففي وباء 401 هـ بقرطبة ونواحيها كان يدفن في كل يوم من الناس أزيد من 500 نفس وفي المقابر الكبرى مائة ميت حتى خلت أزقة المدينة وأسواقها³⁹.

وفي وباء 571-572 هـ يذكر ابن أبي زرع أن عدد الموتى بمراكش انتهى إلى ألف وسبعمائة رجل (1700)،⁴⁰ لكن هذا الرقم ضعيف ولا يعبر عن أزمة خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار ما جاء به معاصره ابن عذاري المراكشي، حيث أورد أنه كان يموت في كل يوم ما بين مائة ومائة وتسعين شخصا وأكثر من أهل المدينة، وكان يموت من خدم القصر وعبيده في كل يوم ستة وثلاثون شخصا، ومات أربعة من إخوة الخليفة وشيخان موحديان وقاضي الجماعة وكاتبان ومشرفان وجملة من أعيان الطلبة والموحدين، بينما مرض الخليفة حتى أشرف على الموت⁴¹. ويظهر بوضوح أن هذه الأرقام مخيفة وتنبئ عن ضخامة الخسائر البشرية التي عرفتها مدينة مراكش فما بالك إذا أضفنا إليها ما حدث في إقليمها وفاس والغرب؛ وربما، في الأندلس.

³¹ ابن حيان القرطبي، المقتبس في تاريخ الأندلس، تحقيق شالميتا وآخرين، الجزء 5 (مدير: المعهد الإسباني العربي، 1979)، 109-110 و124.

³² مجهول، ذكر بلاد الأندلس، 186.

³³ الناصري، الاستقصا، الجزء 1، 249.

³⁴ حسن ابن القطان المراكشي، نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تحقيق محمود علي مكي (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1990)، 226.

³⁵ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، 277.

³⁶ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، 409.

³⁷ عبد الرحمن التمارقي، الفوائد الجمّة في إسناد علوم الأمة، تحقيق البيزيد الرازي (بيروت: دار الكتاب العلمية، 2007)، 111 و308؛ محمد الصغير الإفرائي، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تحقيق عبد اللطيف الشاذلي (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1998)، 279.

³⁸ الناصري، الاستقصا، الجزء 6، 112.

³⁹ ابن خاتمة في: ثلاث رسائل، 222.

⁴⁰ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، 267.

⁴¹ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، 136-137؛ ابن الزبير، صلة الصلة، تحقيق أبو العلا العدوي، الجزء 3 (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 2008)، 134؛ يوسف بن يحيى التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق أحمد التوفيق (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1997)، 238 و248-249.

وفي وباء 749-750هـ حدث نزيف سكاني شديد عبر عنه شاهد العيان المؤرخ ابن الخطيب عندما تكلم عن جنازة أحد رجال غرناطة حيث قال: "خرجت جنازته في اليوم التالي ليلة وفاته في ركب من الأموات يناهز الألف وينيف بمائتين واستمر ذلك مدة".⁴² وسجل معاصره ابن خاتمة بعض الأرقام حيث سجل أن عدد الموتى في اليوم في وقت الذروة وصل بالمرية إلى سبعين (70) نسمة وبلنسية إلى 1500 وميورقة إلى 1200 وبتلمسان إلى أكثر من 700، ويضيف "كذلك كان الأمر بسائر البلاد كبيرها وصغيرها على ما تأدى إلينا".⁴³ وتعكس هذه الأرقام فداحة الخسائر، وعلينا أن نتخيل عدد من سيفقدون في باقي بلاد بني الأحمر ومغرب المرينيين. وقد قربنا نفس المؤلف من واقع الحال عندما قال إن ميورقة لوحدها فقدت ¼ سكانها.⁴⁴

وفي وباء 1006-1016هـ وجدنا رقما يدعم العبارات العامة التي أوردناها أعلاه، حيث يذكر القادري أن عدد الموتى بفاس وصل إلى ما بين خمسمائة وألف في اليوم الواحد ومات من الشرفاء والفقهاء وأعيان فاس أزيد من ستة آلاف،⁴⁵ وإذا نظرنا إلى هذا العدد في اليوم في وقت الذروة وعدد ما فقد من خاصتها يمكن أن نتصور مدى فداحة الخسارة، وإذا أضفنا إليها من مات بزعر وتادلة ومراكش وسوس وغيرها من البلاد اتضح حجم الكارثة الديمغرافية الخطير. ولم تفقد البلاد فقط ناسا عاديين، بل أعيانا ومشايخ كان لهم دور أساسي في تسيير البلاد وقيادتها سياسيا ودينيا وعلميا.

وفي وباء 1088-1092هـ فشا الموت بشكل قوي واحتفظ القادري ببعض الأرقام المعبرة عن فداحة الخسائر، ففي تطوان كان عدد القتلى خمسون في اليوم وفي القصر مائة وخمسون وبفاس "بلغ الموتى في اليوم الواحد من أربعمائة إلى ثمانمائة إلى ألف وأزيد" ووصل الموتى في مكناسة إلى ثلاثمائة في اليوم وفي مراكش إلى ألفين وأكثر و"مات بمدغرة وتافيلالت وتوات وسائر بلاد الصحراء ما لا يحصى".⁴⁶ وعندنا في تمكروت مقر الزاوية الناصرية اشتد الموت وامتألت المقبرة الدخلانية (لالة عيشة تاشريفت حاليا) وتنازع الناس حول الدفن فيها واضطر الشيخ أحمد بن محمد الخليفة إلى إنشاء مقبرة جديدة (مقبرة سيدي محمد الحبيب بباب تافيلالت جوار سوق السبت الحالي-المقبرة البرانية)، وحتى يشجع الناس على الدفن بها دفن بها تلميذ أبيه ووكيله ومعلم أولاده

⁴² لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، الجزء 1 (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1973)، 173.

⁴³ ثلاث رسائل، 143.

⁴⁴ ثلاث رسائل، 143.

⁴⁵ القادري، نشر المثاني، الجزء 1، 69.

⁴⁶ القادري، نشر المثاني، الجزء 2، 250-251؛ محمد الضعيف الرباطي، تاريخ الدولة السعيدة، تحقيق أحمد العمري (الرباط: دار المأثورات، 1986)، 62-63.

(نقصد إخوته هو) سيدي محمد الحبيب؛ وإليه تنسب حتى الآن، وإخوته الذين ماتوا في الوباء.⁴⁷

يظهر من هذه الأرقام الجزئية أن الطاعون كان يأخذ أعدادا هائلة من السكان ومن كل الفئات الاجتماعية. وإذا جمعنا الإشارات العامة والأرقام الجزئية يمكننا أن نستنتج أن البلاد تتعرض لنزيف بشري حقيقي مما يفرغها من سكانها ويوقف نموها الديمغرافي ويساهم في تراجع أعداد السكان وفي أحسن الأحوال ركود نموهم.

وترافق الوباء عادة أزمة اقتصادية تتمظهر في ارتفاع الأسعار وقلة المواد الغذائية وانتشار الجوع. وقد احتفظت مصادرنا بعبارات تدل على ذلك سنعمل على عرضها لتوضيح هذا الأمر. ففي عام 260هـ "كان بالمغرب والأندلس وباء عظيم مع غلاء في الأسعار وعدمت الأقوات".⁴⁸ وفي عام 303هـ "اشتد الغلاء وبلغت الحاجة والفاقة بالناس مبلغا لم يكن لهم عهد بمثلهما، وبلغ قفيز القمح بكيل سوق قرطبة ثلاثة دنانير" وتفاقم الأمر أكثر فوصل ثمن القفيز إلى اثني عشر دينارا ومات الناس جوعا.⁴⁹ وفي عام 512هـ عرفت تلمسان وباء وغلاء عظيما حيث بلغ ربع الدقيق عشرين درهما.⁵⁰ وفي 526هـ غلت الأسعار بقرطبة وبيع مد القمح بخمسة عشر دينارا.⁵¹ وفي عام 630هـ وصل سق القمح إلى ثلاثين دينارا⁵² وجعله الناصري ثمانين دينارا⁵³ ويبدو أن الرقم يحتمل خطأ ما كسوء نسخ وتحريف أو مبالغة. وفي عام 693هـ "بلغ القمح فيها عشرة دراهم للمد والدقيق ست أواقي بدرهم".⁵⁴ وفي وباء 1006-1016هـ كان الغلاء الشديد في سائر البلاد.⁵⁵ وفي وباء 1088-1092هـ كان الغلاء⁵⁶ وبيع القمح بفاس بنحو درهم شرعي للصاع النبوي وبيع سرا بنحو درهمن شرعيين للصاع.⁵⁷

تظهر هذه الشواهد أن الوباء؛ في معظم الأحيان، يكون مقرونا بارتفاع الأسعار وقلة المؤن وصعوبة التموين. ويمكن تفسير ذلك بشكل طبيعي عندما يقترن الوباء

⁴⁷ محمد بن عبد السلام الناصري، المزايا فيما أحدث من البدع بأمر الزوايا، تحقيق عبد المجيد خيالي (بيروت: دار الكتب العلمية، 2003)، 173-174.

⁴⁸ الناصري، الاستقصا، الجزء 1، 236؛ ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق إبراهيم الأبياري (القاهرة: دار الكتاب المصري، 1989)، 106-107.

⁴⁹ ابن حيان، المقتبس، الجزء 5، 109 و124.

⁵⁰ ابن عذاري، البيان المغرب، تحقيق إيفارست ليفي-بروفنصال وجورج كولان، الجزء 1 (بيروت: دار الثقافة، 1983)، 307.

⁵¹ ابن القطان، نظم الجمان، 226.

⁵² ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، 276.

⁵³ الناصري، الاستقصا، الجزء 2، 264.

⁵⁴ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، 409.

⁵⁵ الإفرائي، نزهة الحادي، 281.

⁵⁶ القادري، نشر المتاني، الجزء 2، 302.

⁵⁷ الضعيف، تاريخ الدولة السعيدة، 64.

بسنة جفاف وانعدام الإنتاج الزراعي، لكن التأمل يدفع إلى ترجيح أن يكون الوباء نتيجة لفوضوية الأسواق وضعف تنظيمها فبمجرد ما تبدأ أنباء الوباء في الانتشار يعم الفرع في أوساط الناس ويكثر الاقبال على شراء المون الرئيسية وخاصة القمح والدقيق؛ ليس فقط للاستهلاك ولكن للدخار، فيتجاوب السوق مع الوضع ويعم الاحتكار وإخفاء البضائع فتندر في السوق وترتفع أسعارها ويبدأ البيع في الأسواق السوداء بسعر يحدده المحتكرون. ولا يجب أن ننسى أن الوباء عادة ما يؤدي إلى الخمول وقلة الحركة وموت العمال مما يضعف حركة الإنتاج؛ فقد ورد أن المغرب عرف في سنة 380هـ رخاء واسعاً لكن الفلاحين تركوا الزرع في حقله لا يحصدونه لرخصه وعدم الرغبة فيه،⁵⁸ لكننا نعتقد أن الأمر يرتبط أيضاً بضعف الناس وقلة العمال لكون السنة التي قبلها سنة وباء عظيم وأمراض كثيرة.⁵⁹ وفي هذه الأوقات يصعب تزويد المدن بالمون وانتقال البضائع بين المناطق ويزيد من عسره انعدام الامن وقطع الطرق على المزودين بالميرة. وقد أكد ابن خاتمة توقف التجارة بين البلدان حين كتب "فلم تنقل لنا أخبار شافية يركن إلى صحتها لقرب العهد به، وبعد الأقطار، وانقطاع المسافرين من أهل الملتين عن الأسفار برا وبحرا".⁶⁰ فإذا اجتمعت هذه العناصر تكون النتيجة الحتمية الجوع والزيادة من ضعف الناس وارتفاع عدد الموتى. وبذلك يتحالف الوباء والجوع على الناس وخاصة ضعافهم للفتك بهم، وهذا يخلف آثاراً اجتماعية عميقة.

ويتميز زمان الوباء بأزمة اجتماعية تتخذ صوراً عديدة منها فشو التقاطع الاجتماعي والتباغض بين ذوي الأرحام والأباعد (عام 303هـ)،⁶¹ وغلبة الأنانية حيث صار كل واحد لا يفكر إلا في نفسه، وأكل الناس بعضهم بعضاً (عام 285هـ).⁶² وقد صور ابن عذاري هذا التكالب وانعدام الرحمة واعتماد القوة بمناسبة مجاعة في مراكش عام 632هـ بطريقة معبرة وبليغة تعكس الواقع بشكل مصور، ومما قال: "وإذا ظهر في السوق بعد أيام كثيرة شيء من خبز الشعير يحشر الناس عليه وإنهم لقيام ينظرون وما يصل إليه إلا الكفاة الذين لهم تجلد على الاقتحام وصبر، ثم لا يعدم الذي يتوصل إليه أن يجتمع عليه العشرون وأكثر من الضعفاء المساكين حتى ينتزعوه منه قهراً وأما شيخ أو عجوز أو طفل أو ضعيف فإنه لا يصل إلى شيء ولو على لقمة منه".⁶³ وقد استعمل

⁵⁸ الناصري، الاستقصا، الجزء 1، 282.

⁵⁹ الناصري، الاستقصا، الجزء 1، 282.

⁶⁰ ثلاث رسائل، 145.

⁶¹ ابن حيان، المقتبس، الجزء 5، 124.

⁶² الناصري، الاستقصا، الجزء 1، 237.

⁶³ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، 325.

ابن أبي زرع في حديثه عن وباء سنة 635هـ عبارة أكل الناس بعضهم بعضا لتلخيص هذا الوضع.⁶⁴

يعرف زمان الوباء فرار الناس من بعضهم البعض خاصة ممن ظهر عليه الوباء، وقد سجل الونشريسي ذلك في فتويين حول الموضوع، ويتخذ الفرار شكل قطع العيادة والتوقف عن التمريض وعدم الاقبال على غسل ودفن الموتى،⁶⁵ وقد أكد التمنارتي أن الضعفة هم الذين يكونون عرضة للإهمال وضياع حقوق الدفن والتمريض عند فرار الأقوياء.⁶⁶ وتتخذ الأزمة أيضا شكل لصومية وسطو على الممتلكات خاصة الطعام. ففي عام 303هـ وفي عز الوباء والقحط كان أهل الشر بالأندلس "لا يفترون عن العدوان على من مر بهم من رفاق المسلمين وطالبي المعاش وجالبي الميرة".⁶⁷ وفي وباء 526هـ بقرطبة كثر اللصوص مما تطلب مواجعتهم من قبل العامل.⁶⁸

هكذا نلاحظ أن الوباء يحطم أعمدة المجتمع الثلاثة بإفناء الناس وتدمير المعاش وإفساد الأخلاق، فهو بذلك يشكل نكوصا ماديا ومعنويا للبلاد.

4. المواقف من الوباء

اختلفت المواقف المتخذة من الوباء واتخذت صورا متعددة، وسنعمل على تتبعها من خلال الوقاية والعلاج وحل المشكل الغذائي والحفاظ على الأمن.

4.1. الوقاية والتحفظ من الوباء

يعتبر الحديث الصحيح "إذا سمعتم به [الوباء] بأرض فلا تدخلوا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها فرارا منه". (متفق عليه) المحدد الرئيسي لسلوكات المسلمين اتجاه الوباء: لا فرار منه ولا إقبال عليه دون إغفال وجود خلافات بين العلماء. وهذه هي القاعدة التي يفترض أنها تنطبق على مجال دراستنا، فهل وفرت مصادرنا معطيات حول الموضوع؟

الحقيقة أننا لا نتوفر على معطيات كثيرة ولم نصادف إلا إشارة واحدة قبل القرن 6هـ/12م، حيث ذكر ابن أبي الفياض أن الناس في وباء 401هـ كانوا يفرون من قرطبة ويخرجون إلى كل ناحية من البلاد.⁶⁹ وسننتظر حتى عهد الموحيدين لنجد إشارة

⁶⁴ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، 276؛ الناصري، الاستقصا، الجزء 2، 264.

⁶⁵ الونشريسي، المعيار المغرب، الجزء 11، 252 و258.

⁶⁶ التمنارتي، الفوائد الجمعة، 112.

⁶⁷ ابن حيان، المقتبس، الجزء 5، 110.

⁶⁸ ابن حيان، المقتبس، الجزء 5، 226.

⁶⁹ ابن خاتمة من كتاب ثلاث رسائل، 222. ونبه إلى أن هذا الوقت يتزامن بقرطبة مع حصار البربر مع المستعين بالله وانتشار الغلاء.

مبهمة؛ ربما تدل على شيء من ذلك. فقد أورد ابن عذاري عند حديثه عن مراكش في وباء 571-572 هـ العبارة التالية: ”روع الناس بالحضرة المذكورة حتى كاد لم يخرج منها أحد ولا يدخلها أحد، وكل من خرج منها فارا بنفسه مات في الطريق“. وكتب قبل هذا عن الموتى ”حتى إن الناس لا يستطيعون بحملهم إلى الجامع للصلاة عليهم فأمر الخليفة بأن يصلى عليهم في سائر المساجد رفقا بالناس في ذلك“.⁷⁰ ألا يسمح هذا النص باستنتاج أن الموحدين فرضوا حجرا على المدينة؟ الحقيقة أننا نميل إلى تأكيد ذلك أولا، بناء على الكلمات التي وردت فيه خاصة روع الناس ولا يخرج منها أحد ولا يدخلها وخرج منها فارا، وثانيا، توقيف الصلاة على الجنائز في المسجد الجامع المعروف بالكتبية وإقامتها في مساجد الأحياء ولا يمكن حصول هذا التنازل من نظام سياسي شديد التمرکز إلا لشيء قاهر، وهو هنا يتعلق بالخوف من مزيد انتشار العدوى، وثالثا، ما عرف عن الموحدين من الصرامة في تطبيق الأوامر الشرعية أو القرارات التي يتخذونها. وبناء على هذا يمكن أن نقول؛ لو صح هذا، إن ما حصل في مراكش يعتبر أول حجر فرض لتخفيف انتشار العدوى بالوباء.

وانتظرنا الطاعون الكبير لتتعرف على عادات الأندلسيين مع ابن خاتمة وابن الخطيب والشقوري بشكل واضح، فمعهم تعرفنا على كثير من الإجراءات التي اعتاد الأندلسيون القيام بها للاحتراز من الوباء، ونعتقد أنها ليست وليدة هذا الطاعون، بل هي تقاليد ترسخت منذ قرون بالرغم من سكوت المصادر عنها كما أشرنا أعلاه. وتتوزع هذه الإجراءات بين الخروج من الحواضر والأماكن الموبوءة وتعقيم المدن والدور وتجنب الاحتكاك بالمرضى ثم اتباع حمية خاصة بوقت الوباء.

• الخروج من المدن واللجوء إلى الضيعات أو المدن السليمة منه:

وقد نظم ابن الخطيب أبياتا تثبت ذلك:⁷¹

ما للوباء من الدواء سوى السفر والبعد عنه فذا الذي اشتهر
فعلى الكرامة جلهم حمل الخبر والأجر يحصل للمقيم إن صبر

وحتى عندما حاول الاستدراك أكد العادة المشهورة عند الخاصة ومن له ضيعة يفر إليها، فقال:

⁷⁰ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، 136.

⁷¹ لسان الدين بن الخطيب، مقنعة السائل، مخطوط المكتبة الوطنية الإسبانية بمدريد رقم، Mss/5067/7، ص.2.

يا من يفر من الوباء يزعمه ويرى الخروج إلى الرياض يقيه
هذا على الاطلاق ليس يقوله من كان يدعى عنده بفيقيه

ويبدو من الآيات أن هذا الموضوع ومسألة العدوى المرتبطة به قد أثارا جدلا كبيرا، وانقسم الناس بشأنهما إلى فريقين بين مؤكد للعدوى وناكر لوجودها كما وضحنا ذلك أعلاه. وأما الذين بحثوا عن الأجر والإقامة فقد لجأ الأقوياء منهم إلى عزلة داخل المدينة عن طريق إغلاق بيوتهم عليهم وعلى أسرهم والاعتماد على مخازن أطعمتهم ومواشي حظائرهم وماء آبارهم أو عيونهم؛ خاصة وأن اقتصاد الاكتفاء الذاتي السائد يساعدهم في ذلك، في انتظار انجلاء الوباء. ويعطي الزاهد ابن أبي مدين السلوي أحسن مثال على ذلك، حيث آمن بالعدوى وعندما انتشر الوباء تزود لمدة وبني عليه وعلى أهله الكثيري العدد باب بيته طيلة الوباء ففנית المدينة ولم يفقد هو نفسا واحدة.⁷² أما فقراء الناس الذين يحتاجون للتصرف في معاشهم فيخرجون من بيوتهم شريطة تجنب المرضى واتخاذ مشمومات تبعد روائحهم وهواءهم الموبوء.⁷³

والخلاصة أن الأغنياء وذوي القدرة كانوا يفرون من المدن الموبوءة أو يعزلون أنفسهم جزئيا أو كليا في بيوتهم المجهزة بكل الحاجيات، بينما يبقى الفقراء في مساكنهم الضيقة وفي أسواق المدينة وأزقتها حيث يكدون للعيش مما يعرضهم أكثر للعدوى ويرفع عدد الموتى في أوساطهم.⁷⁴

• تعقيم المدن والدور

يتم بإشعال النيران في أوراق الطرفاء والآس والكرم والقصب الأخضر والكافور وأصناف الرياحين وسط النهار والغدو والعشي في أماكن هبوب الهواء والمناطق المرتفعة، ورش سطوح البيوت وجدرها بالخل مخلوطا بالماء وتبخيرها أكثر الوقت بمواد تختلف حسب برد الهواء وسخونته ومنها: القطران والسندروس والكندر والميعة والسرو المصطكي والنيلة والريحان، وتهوية البيوت والمجالس بفتح أبوابها على ناحية الشمال، واختيار المساكن المنخفضة والباردة نهارا والمرتفعة والمعرضة لمهب الرياح ليلا.⁷⁵

⁷² ثلاث رسائل، 114 (ابن الخطيب).

⁷³ ثلاث رسائل، 108 و259.

⁷⁴ ثلاث رسائل، 119 و159.

⁷⁵ ثلاث رسائل، 121 و161 و257-258.

• تجنب الاحتكاك بالمرضى

لتجنب العدوى يجب الابتعاد عن المريض والميت بالوباء وعن كل متعلقاتهما من ثوب وآنية وآلة ومسكن؛ بالسكن أو المجاورة، وعند الضرورة يجب التوقي وتجنب التنفس بجوار المريض والانكباب على مشموم تبل به رقعة كتان تشم باستمرار والجلوس عنده في أعالي الرياح.⁷⁶ ويؤكد ابن الخطيب أن عدم الالتزام بهذا الاحتياط هو الذي يجعله ينتشر في أهل الشظف والفقراء أكثر من غيرهم.⁷⁷

• اتباع نظام حياة خاص لتجنب الإصابة بالمرض

ويتضمن استفراغ الجسد من المادة الزائدة عن طريق غسل المعدة بالدواء أو القيء وإدرار البول والفصد والحجامة، وتجنب الحمام الساخن والاعتسال بالماء البارد أو الفاتر وسط النهار، والتقليل من الأكل والشرب، والابتعاد عن الموالح والحلاوات، والاقبال على الأغذية المعتدلة المائلة إلى البرودة والغليظة، واستهلاك الحامض والبصل والثوم بكثرة. وقد حدد الشقوري وابن خاتمة وابن الخطيب نظاما غذائيا لتجنب المرض يتكون من خبز القمح النقي المعجون بقليل خل وحسو فتيت الخبز وجشيش الشعير والأرز الرقيق ولحم الطير (دجاج-حجل) ومخللات وماء بارد ممزوج بخل وثلج وتفاع وإجاص ورمان وسفرجل مريين.⁷⁸

• اتخاذ دواء وقائي يدعم حصانة الجسم.⁷⁹

• النوم بشكل منتظم وتجنب الجماع المجهد.⁸⁰

• التعرض للمسرات والافراح والتعلق بالآمال ومجالسة أحسن الناس وقراءة

القرآن وكتب التاريخ والشعر والفكاهة وتجنب كثرة التفكير والغم.⁸¹

ويلاحظ أن هذه الإجراءات التي عرضناها تهم أساسا عليّة القوم من الأغنياء وميسوري الحال، أما عامة الناس فمن الصعب أن نفكر بأخذهم بها نتيجة الفقر والتهاون والجهل والحاجة إلى الحركة والعمل للعيش، وهو ما تنبه إليه ابن الخطيب كما ذكرنا أعلاه. وهذا يجعلنا نعتقد جازمين أننا نحتاج إلى معطيات كثيرة عن السلوك الحقيقي للناس في الأندلس زمن الوباء ما دامت تصرفات الأغلبية الكبرى لم تسجل.

⁷⁶ ثلاث رسائل، 109 و157-159.

⁷⁷ ثلاث رسائل، 119.

⁷⁸ ثلاث رسائل، 258-261 و162-164 و108.

⁷⁹ ثلاث رسائل، 165 (الشقوري).

⁸⁰ ثلاث رسائل، 169 (الشقوري).

⁸¹ ثلاث رسائل، 170-171 (الشقوري).

وفي وباء (1006-1016هـ) ترك المهتمون به معطيات حول سلوك الناس خاصة من الحكام والعلماء. ففي رسالة للمنصور السعدي وجهها لابنه وخليفته على مراكش أبي فارس أمره بالخروج من المدينة إلى سلا بمجرد ظهور أول علامة للوباء وسمح أيضا لمجموعة من أقربائه ورجال الدولة بالخروج من تارودانت لانتشار الوباء بها، لكنه اشترط التثبت والتأكد من الأمر قبل المبادرة بالخروج. كما أكد على تجنب لمس الأشياء الآتية من المناطق الموبوءة (تارودانت) خاصة الرسائل وضرورة تنقيعها في الخل وتكليف كاتبه بقراءتها قبل أن يدخل عليه بها تجنباً للعدوى.⁸²

وقد أكد التمنارتي هذا السلوك عند حديثه عن هذا الوباء حيث كتب "كان أول ما وقع بالحواضر. فأما أهل فاس فصبوا وتلقوا الأمر بالتسليم فارتفع عنهم من سنته ولم يعد إليهم، وأما أهل مراكش وتارودانت فتفرقوا له في البادية والجبال، فكان أكثر وقوعه بهم وانقرض جل أعيانهم حتى استولى الخراب من ذلك على الحاضرتين" ويضيف أنه استمر بسبب شؤم الفرار منه.⁸³ ويؤكد النص سلوك الفرار الوارد في الرسالة حيث يغادر الأعيان المدن نحو البوادي اعتقاداً منهم أن خطره يقتصر عليها، لكنه يشير إلى شيء مهم وهو اختلاف سلوك المدن فأهل فاس لم يهربوا من المدينة لذلك خف عنهم الوباء، ويمكن أن يفسر هذا بالتقاليد التي اكتسبتها في مواجهة الوباء عبر تاريخها، ويجب أيضاً أخذ حكمه بشكل نسبي فالسلوك لن يشمل جميع الأعيان والعلماء بل فئة منهم فقط.

وفي وباء 1088-1092هـ، اتضح أن الناس بكل فئاتهم كانوا يفرون من الوباء كما حصل في أحواز فاس (عين الخميس)،⁸⁴ كما ظهر سلوك جديد يتمثل في تدخل السلطة لمنع نقل العدوى حيث منع عبيد البخاري عبور واد سبو على كل قادم من الشمال ومنع السفر من فاس إلى مكناس (مدة شهر) تحت طائلة القتل، كما أحرقوا القرى التي أفرغها الوباء بعين الخميس بضواحي فاس.⁸⁵ هكذا نلاحظ أن مراقبة التعامل مع الوباء بعدما كانت تترك لأوامر الشرع والتزام الناس الأخلاقي قد انتقلت إلى يد السلطة التي صارت تفرض أوامر الشرع والتعليمات الطبية، ويمكن إدراج هذا ضمن التغيرات التي عرفها العالم خاصة في أوروبا والامبراطورية العثمانية حيث تشدد الحكام في مراقبة الوباء والحجر على المرضى تجنباً لانتشاره والخسائر التي يحدثها. وقد سجل ذلك أبو سالم العياشي عند مروره بإفريقية وجنوب الجزائر عند عودته من الحج عام

⁸² الناصري، الاستقصا، الجزء 5، 179-181.

⁸³ التمنارتي، الفوائد الجمعة، 111-112.

⁸⁴ القادري، نشر المثنائي، الجزء 2، 251.

⁸⁵ القادري، نشر المثنائي، الجزء 2، 251؛ الضعيف، تاريخ الدولة السعيدة، 62.

1074هـ/1663م عندما منعهم أهل الأغواط من دخول بلدتهم بسبب وجود الوباء في الراكب.⁸⁶ وبعد هذا التاريخ ستصبح الرقابة على الوباء شديدة في إطار ما يعرف بالكرنتينة التي فرضها الأوربيون على المغرب وسببت ردود فعل قوية في أوساط العلماء والسكان كما سجلها الناصري.⁸⁷

هكذا نلاحظ أن التحفظ من الوباء كان سائدا في أوساط الخاصة من سكان المغرب والأندلس واتخذ شكل فرار من الأماكن الموبوءة وخاصة الحواضر نحو البوادي أو البيوت المغلقة وحجر وتوقيف حركة السكان في بعض الحالات (وباء 571-572هـ بمراكش ووباء 1088-1092هـ) وتعقيم البيوت والمدن والتزام حمية صحية وغذائية.

4.2. العلاج

لم تقتصر مواجهة الوباء على حماية الأصحاء، بل حاول أهل المغرب والأندلس البحث عن علاج للمرضى. وقد سبق لنا في دراستنا للموقف من المرض في المنطقة أن أكدنا أن هذا المجتمع؛ وبالرغم من اعتباره المرض قضاء إلهيا لا مفر منه، فإنه يؤكد على ضرورة علاجه والتخلص منه.⁸⁸ ويجب أن نذكر أن ابن خاتمة والشقوري سجلا صدى نقاش دار بين أفراد المجتمع حول العلاج، حيث وجد تياران: واحد يرفض الطب ويرى أنه يخالف شرع الله وتيار يرى أن الطب هو أمر ندب الله ورسوله إليه وأنعم به على عباده وهما من أنصاره.⁸⁹ ونؤكد أيضا أن الوباء جعل كثيرا من الناس يتهافتون على وصف الأدوية بدون علم، ومقابلهم كان أطباء يصنعون أدوية لعلاج وصف ابن الخطيب وابن خاتمة بعضها.⁹⁰ لكن يظهر من خلال بعض العلاجات الخاصة التي ذكرها الشقوري ومنها: التختم بالياقوت وتعليق ناب الفيل في عنق الطفل وتعليق قطعة درونج في البيت واتخاذ خاتم آس طري...⁹¹ أن الأطباء لم يجدوا علاجا للوباء ولذلك لجأوا إلى هذه السلوكات الخرافية. وقد اعترف بذلك ابن خاتمة صراحة عندما قرر أن علاجه إذا استحكمت لا رجاء منه.⁹² ونفس القناعة توصل إليها المشاركة كما عبر عنها ابن حجر في هذا الكلام: ”وهذا الطاعون قد أعيا الأطباء حتى سلم حذاقهم أنه لا دواء له، ولا دافع إلا الذي خلقه وقدر.“⁹³ ويتأكد الأمر أكثر عندما نتأمل طريقة العلاج التي

⁸⁶ أبو سالم عبد الله العياشي، الرحلة العياشية، تحقيق سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، الجزء 2 (أبو ظبي: دار السويدي، 2006)، 546.

⁸⁷ الناصري، الاستقصا، الجزء 5، 183-185.

⁸⁸ محمد حقي، الموقف من المرض (بني ملال: مطبعة مانيبال، 2007)، 124.

⁸⁹ ثلاث رسائل، 202-205 و256-257.

⁹⁰ ثلاث رسائل، 120 و262 و176-178.

⁹¹ ثلاث رسائل، 263.

⁹² ثلاث رسائل، 179.

⁹³ ابن حجر، بذل الماعون، 106؛ السيوطي، ما رواه الواعون، 147.

عرضها ابن الخطيب وابن خاتمة والتي تقوم على الفصل بين العناصر الثلاثة المكونة للمرض:⁹⁴ علاج الحمى بأدوية الحميات، وعلاج ذات الرئة لنفث الدم، وعلاج الخراج والندوب السوداء: تسكين وتفجير بالدواء وصناعة اليد. ونعتقد أن هذا التصور هو السائد في العصر وخطأه واضح، فالطاعون ليس هذه الأمراض الثلاثة وإنما هو مرض آخر تمثل هذه العناصر أعراضه.

وحسب تأكيد ابن خاتمة فالعلاج الشائع والواسع الانتشار هو الفصد حيث قال: ”وقد وقفت من أحوال الناس في استفراغ الدم وتجاسرهم عليه وانتفاعهم به في هذا الحادث على أمور عجيبة وأحوال غريبة، فرأيت ممن استفرغ مرات لحفظ صحته بطول استمرار هذا الحادث إلى الآن ثمانية أرطال وسبعة أرطال ونحو ذلك، وأما عامة الناس فاستفرغوا من خمسة أرطال إلى ما يليها“.⁹⁵ وكان هو قد نصح به واستعمله وامتدحه بعبارات مختلفة منها: ”لم نجد علاجاً هو أيسر تداركاً ولا أنجع عاقبة من تفجير الدم بشق العروق وخاصة لأول الشعور بالمرض“ و”لا علاج في هذا المحل أيسر من استفراغ الدم، ولا أنجح منه لأنه ينفس على القلب“،⁹⁶ فتهافت الناس عليه وافتصدوا بأنفسهم دون حاجة إلى طبيب وافتصد الأطفال والكبار والشيوخ ومن لم يسبق له الفصد عدة مرات في الشهر الواحد.⁹⁷

وقد تسبب الانتشار الواسع للفصد وتعاطيه من قبل الحجامين والعطارين والجهلة في أخطاء ذهبت بأرواح ناس كثيرين⁹⁸ دفعت الشقوري إلى طلب تدخل أولي الأمر لمنعهم من الفصد ووصف الأدوية دون علم.⁹⁹ وهذا العلاج الطبي على قصوره لا يصل إلا إلى فئة قليلة من الخاصة (حكام وعلماء وأعيان)،¹⁰⁰ بينما تترك عامة الناس لنفسها للبحث عن علاج تجتمع فيه المعتقدات الدينية والخرافية وآثار معطيات طبية باهتة تتداولها أيدي بعض الفقهاء والمتصوفة والدجالين والعطارين.

وفي عهد السعديين وجدنا إشارة إلى وجود علاج في رسالة المنصور السابقة، حيث أشار على ابنه باستعمال الترياق الجديد وتوزيعه على أهل القصر والموالي والخدام (يتحملة الكبار فقط لأنه يسبب الحمى) كما يشير إلى وجوده في خزانة القصر الطبية،

⁹⁴ ثلاث رسائل، 108 و184.

⁹⁵ نفسه، 168.

⁹⁶ نفسه، 168-169 و175-176.

⁹⁷ نفسه، 169 و146.

⁹⁸ نفسه، 195.

⁹⁹ نفسه، 262.

¹⁰⁰ حقي، الموقف من المرض، 104.

أما الأطفال فيعطون شربة (تسبب برودة في المعدة).¹⁰¹ ولا ندري هل يقصد بالترياق عشبة الكينة كينة¹⁰² التي عمم استعمالها في أوروبا منذ منتصف القرن 17م لعلاج حمى المستنقعات (الملاريا)، والتي كانت موجودة في المغرب وبالضبط في معشبات فاس وفي تناول العموم عام 1156هـ/1743م كما أكد ذلك ابن حمادوش في رحلته حيث اشتراها وتداوى بها من الحمى التي أصابته.¹⁰³ وكيفما كان نوع هذا الدواء فهو نادر ولا يحظى به إلا أهل القصر وخاصة الخاصة أما العامة فلا سبيل لها إليه وتكتفي في محاولة العلاج ببعض الأدوية الشعبية.

ولم يكتف المجتمع بالعلاج الطبي المادي بل لجأ إلى علاج روحي تضمن عدة عناصر. وقد أورد الونشريسي دعاء يقال لتجنب الوباء يقول: "ربنا أنت الله الذي لا إله أنت، تقدر اسمك أمرك في السماء والأرض، كما رحمتك في السماء، اجعل رحمتك في الأرض، اغفر لنا حوبنا وخطايانا، أنت رب العالمين، انزل رحمة من رحمتك وشفاء من شفائك".¹⁰⁴ وذكر ابن الخطيب دعاء آخر كان يقرأ جماعة بعد الصلوات جاء فيه: "اللهم إنا نعوذ بك من عظيم البلاء في النفس والأهل والمال والولد، الله أكبر الله أكبر الله أكبر مما نخاف ونحذر، الله أكبر الله أكبر الله أكبر عدد ذنوبنا حتى تغفر، اللهم كما شفعت فينا نبينا محمدا فأمهلنا وعمر بنا منازلنا ولا تؤاخذنا بسوء أفعالنا ولا تهلكنا لخطايانا يا رب العالمين". كما كان الناس يكثر من الصلاة على النبي وصلاة النافلة.¹⁰⁵ ويفرون إلى المساجد ويلازمونها ويعلنون توبتهم.¹⁰⁶ وكان يدعى في الأندلس أيضا بدعاء أورده ابن منظور تقول كلماته: "اللهم سكن فتنة صدمات قهرمان الجبروت، رب بالطافك النازلة من باب الملكوت حتى نتشبت بأذيال قدرتك ونعتصم بك يا ذا الرحمة الشاملة، يا ذا الجلال والاكرام".¹⁰⁷ وكان أهل المرية؛ صغارا وكبارا، بقيادة ابن خاتمة إمام وخطيب المسجد الجامع قد أحسوا بذنوبهم وأنابوا إلى ربهم واتجهوا في توسلهم إلى: التوبة النصوح، والإكثار من الاستغفار والدعاء والذكر ليلا ونهارا، والتصدق على الضعفاء، والاجتماع للدعاء بآيات قرآنية مثل "ربنا ظلمنا أنفسنا" (الأعراف 23) ودعاء الفرج.¹⁰⁸

¹⁰¹ الناصري، الاستقصا، الجزء 5، 179-182.

¹⁰² كتب عنها التونسي حسين خوجة كتابا تحت عنوان الأسرار الكمينية بأحوال الكينة كينة (تونس: بيت الحكمة، 1993)، 85 صفحة، وكان قد تداوى بها عام 1728م بعدما جلبت له من إيطاليا.

¹⁰³ ابن حمادوش الجزائري، الرحلة، تحقيق أبو القاسم سعد الله (الجزائر: المؤسسة الوطنية للفتون المطبعية، 1983)، 84.

¹⁰⁴ الونشريسي، المعيار المعرب، الجزء 11، 359-360.

¹⁰⁵ ثلاث رسائل، 121-122.

¹⁰⁶ الناصري، الاستقصا، الجزء 1، 248.

¹⁰⁷ ثلاث رسائل، 264 (هامش 3).

¹⁰⁸ ثلاث رسائل، 206-207.

وترك التمارني بدوره دعاءين مما يقال عند الوباء: الأول يقرأ أول النهار وآخره وأول الليل: ”سبحان الله ملء الأرض ومنتهى الرضا ومبلغ العلم ووزنة العرش، يا علي يا حليم يا حنان يا حكيم اكفني شر هذا الوباء وشر هذه الريح وشر ما جاءت به، بفضل باسم الله الرحمن الرحيم وبحق لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، اللهم أمسك صدمة قهرمان الجبروت بالطافك اللطيفة الخفية النازلة الواردة من باب الملكوت، حتى نتشبت بأذيال لطفك ونعتصم بك من صدمة هذا الوباء بحق قدرتك يا ذا الرحمة الشاملة والقدرة الكاملة يا ذا الجلال والاکرام“.¹⁰⁹ والثاني لقنه صاحب له مرض بالوباء بين النوم واليقظة فدعا به فشفي: ”اللهم اشفني بشفائك، وداوني بدوائك، وعافني من بلائك ظاهرا وباطنا، إنك على كل شيء قدير“.¹¹⁰

وعرفنا التمارني أيضا بسلوك آخر في أيام الوباء وهو التوسل حيث ترك أبياتا في الموضوع؛¹¹¹ يتضرع فيها إلى الله ويظهر ندمه على ذنوبه وخضوعه لحكمه ويعترف بذنوبه ويتوسل بالرسول وآله وصحبه وتابعيهم لرفع البلاء والشفاء ولم الشمل وجمع الشتات، قال فيها:

| | |
|-----------------------------|---------------------------|
| بارئ الخلق لك الخلق ضرع | ولباب العفو دوما قد قرع |
| دانت الأنفس مما عملت | واجترعت مما اجترحته جرع |
| وجنينا ندما منه وهل | يحصد المرء سوى ما قد زرع |
| فبكينا واتيناك عسى | تنجي من أمر عظيم قد فضع |
| فلك الملك وبالعدل قضيت | والمختار الذي ما شاء صنع |
| ولك الإفضال علينا وما | ضرك الذنب ولا الطوع نفع |
| جل مقدار علاك هدى | كم برهان عليها قد سطع |
| زوت الخلق إليك عقوبتها | فانزواوا طرا فإليك الفزع |
| شمل الكرب جميعهم فغدوا | شتى بعدما الشمل جمع |
| فلطال ذا الخطب علينا وكم | من خيار الخلق به قد صرع |
| عظة لذوي تقواك ومن | كان من أولي الأبصار شسع |
| كريم الصفح تدارك بالعفو وجد | باجتماع الشمل وأمن من جزع |
| بوسيلتك العظمى جئناك ومن | قد تشفعه في الخلق متى شفع |

¹⁰⁹ التمارني، الفوائد الجمعة، 394.

¹¹⁰ التمارني، الفوائد الجمعة، 394-395.

¹¹¹ التمارني، الفوائد الجمعة، 114-115.

وزر الخلق وغوث غياثهم
فأدم رب عليه صلاتك ما
وعلى آل البيت الآلى بهم
وصحابه خير الصحب ومن لهم
مصطفاك الذي بالأمر صدع
سجعت ورق وما برق لمع
في حمى الأمن جميع الخلق رتع
قد غدا في سبيل الرشد تبع

وهذه الأدعية؛ وما تظهره من خضوع للرب ولقدرته والتوسل إليه لتوقيف البلاء وحفظ المهج وشفاء المرضى والتشفع بنبيه وآله، تعكس بشكل ضمني حالة المجتمع العاجز المستسلم أمام قوة الوباء وشراسته وفتكه في ظل غياب أي علاج نافع، وكل ما تبقي هو التسلح بالصبر والانحناء أمام العاصفة وترك الزمان يفعل فعله.

4.3. حل مشكل التموين وتغذية السكان

الحق أن المصادر لا تتحدث عن التدخل لحل مشكل التغذية إلا في وقت المجاعات، بينما لا تذكره في وقت الأوبئة إلا نادرا مع أنها تذكر أن الطعام يندر بل ويختفي وترتفع أسعاره ويبيع سرا كما بينا ذلك أعلاه، لكنها بعد ذلك تتغاضى عن ذكر إي إجراء يتعلق بالتموين إلا في حالات نادرة وكأن الوباء والمرض وكثرة الموتى يسيطر على عقل هؤلاء الكتاب الهواة وتفكيرهم وينسيهم أن الناس لا يموتون في زمان الوباء بالمرض فقط بل أيضا بالجوع. وبناء على هذه الملاحظة سنعتمد النصوص الواردة بشأن محاربة الجوع وقت الوباء إضافة إلى بعض من تلك الخاصة بوقت المجاعات رجاء رسم صورة تقريبية للموضوع.

في عهد الأمويين في الأندلس وبالضبط في عام 303هـ لما وقع الوباء في البلاد واشتد الحال بالناس "كثرت صدقات الناصر لدين الله في هذه الأزمة على المساكين وأهل الفاقة وعلى المتعفين عن المسألة وصدقات أهل الحسبة من رجاله المؤتسين به، فنفع الله بهم كثيرا من خلقه، وكان حاجبه بدر بن أحمد مدبر دولته أفشاهم صدقة وأعظمهم مواساة، فنعش الله به أمته".¹¹² ويعرض النص المعطيات التالية: مساعدة الناصر الأموي للناس بسبب الوباء، ومساعدة كل المحتاجين: المساكين وأهل الفاقة والمتعففون عن المسألة، ومشاركة رجال الدولة وعلى رأسهم الحاجب بدر في المساعدة. ويجب أن نضيف إلى هؤلاء المحتسين؛ من غير رجال الدولة، من العلماء والأغنياء والتجار والزهاد وكل من له فصلة مال.

¹¹² ابن حيان، المقتبس، الجزء 5، 109110.

ونلاحظ أن المساعدة لا تشمل فقط المحتاجين المعروفين، بل يبحث عن غيرهم بدليل استفادة المتعفين منها. وقد احتفظت لنا المصادر بقصة عن كيفية تحايل أهل الأندلس على أهل الستر للقبول بالمساعدة. وتحكي أنه كانت مجاعة في جيان فأمر رجل يدعى محمد بن عيسى (ت.222هـ) براحا بالمناداة في السوق برغبته في بيع طعام بثمان اليوم وتأجيل سنة وبدون رهن ولا إلهاد، ففرق طعاما كثيرا بالكيل على كل أصناف الناس وسجل اسم كل من أخذ شيئا، فلما انتهى أمر نفس البراح بالمناداة في الناس أن كل الطعام الموزع هبة لله.¹¹³ ومن الأشياء الجميلة عند الأندلسيين هو كونهم يقدمون طعاما جاهزا للجياح على شكل خبز، ففي عام 350هـ كانت مجاعة بالأندلس فكان الخليفة الحكم المستنصر يوزع اثني عشر ألف خبزة في اليوم، وكان المنصور العامري يوزع (سنة 379هـ) اثنين وعشرين ألف خبزة في اليوم.¹¹⁴ وتتضمن الصدقات أيضا تكفين موتى العاجزين عن توفير كفن لموتاهم،¹¹⁵ والاعفاء من الكلف كالتخلي عن الصائفة (غزو الشمال) لما تتطلبه من مال¹¹⁶ وإسقاط الأعشار.¹¹⁷

وفي وباء سنة 571-572هـ عانى الناس في مراكش من شدة الجوع حيث كان الفقراء يتجمعون عند جامع علي بن يوسف في انتظار مساعدات المحتسبين الذين يأتون لإسعافهم ومنهم يحيى بن محمد بن عبد الرحمن التادلي (ت.576هـ) الذي استدعاهم "فأخرج قمحا وسمنا كان عنده ففرقه عليهم حتى لم يبق له منه شيء"، وقيل إنما وزع غرفتين من قمح ولما لم يبق له شيء وزع عليهم ورق كرنب وسمن، وقيل إنه تصدق بكل ماله في تلك الأزمة.¹¹⁸ ويجعل التميمي مكان توزيع غرفتي القمح والسمن والكرنب بمدينة فاس.¹¹⁹

والغريب أن المصادر لا تذكر شيئا عن مساعدات الموحدين للمتضررين مع أن هذه الخصال ليست غريبة عنهم، فهم الذين "قسموا مدينة مراكش أرباعا، وجعلوا في كل ربع أمناء معهم أموال يتحرون بها المساتير وأرباب البيوتات"، ومنهم يعقوب المنصور الذي يجمع الأيتام الفقراء ويختنهم ويعطي كل واحد منهم عقب ذلك مثقالا ذهباً ودرهمين ورغيفا ورمانة، وهو الذي وزع قبل الخروج للأرك أربعين ألف دينار

¹¹³ محمد بن حارث الخشني، أخبار الفقهاء والمحدثين، تحقيق لويس أبيل ولويس مولينا (مدريد: معهد التعاون مع العالم العربي، 1991)،

114.

¹¹⁴ مجهول، ذكر بلاد الأندلس، 201 و213.

¹¹⁵ مجهول، ذكر بلاد الأندلس، 113.

¹¹⁶ ابن حيان، المقتبس، الجزء 5، 110.

¹¹⁷ مجهول، ذكر بلاد الأندلس، 213.

¹¹⁸ التادلي، التشوف، 245-246.

¹¹⁹ محمد بن عبد الكريم التميمي، المستفاد في مناقب العباد، تحقيق محمد الشريف، الجزء 2 (الرباط: مطبعة طوب برس، 2002)، 210-

211.

كان نصفها للعامة،¹²⁰ ومنهم المستنصر الذي هب لإنقاذ الناس في محل عام 616هـ/1219م حيث فتح مخازن الطعام بثمن للأقوياء وبغيره للضعفاء وزاد على ذلك بتوزيع أموال حسنت أحوال الناس.¹²¹ فهل يمكن أن نستبعد مساعدة دولة تقوم بهذه الأعمال لرعاياها في زمان الوباء خاصة وأنه أصاب الخليفة وكاد يموت منه وفقد فيه إخوته وخدمه ورجال دولته؟ الحقيقة أننا نعتقد أن المصادر هي التي تغافلت عن ذلك كما هي عاداتها في معظم الأوبئة.

ويعطي الزاهد محمد بن أحمد بن صالح القيسي (ت.618هـ) بغرناطة في مسغبة عام 616-617هـ مثالا قويا على ما يقوم به المحتسبون في وقت الأزمات حيث "عمد إلى ما احتوى عليه تملكه من دقيق الأشياء وجليلها حتى أواني الماء وغيرها من خرثي المتاع الذي لا خطر له، وحصر أثمان الجميع بعد تقويمه بالعدل، وأخرج من جملته الثلث فكان مبلغه سبعمائة دينار أو نحوها، وتصدق به على أهل الستر والتساون والتعفف، وتولى تنفيذه للمحاويج وصرف إليهم منه ثلاثمائة دينار أو نحوها".¹²² إنها ثروة كبيرة تفوق ثلاثة كيلوغرامات من الذهب سخت بها نفسه وقدمها للمحتاجين من الساعين إليها ومن الذين يسعى إليهم بها.

وفي وباء 749هـ توسع أهل المرية؛ بتحريض من ابن خاتمة، في الصدقات والمساعدات "فأطعموا المساكين وبذلوا لهم المعروف، وكسوا العرايا منهم وجهزوا اليتامى، وفكوا الأسارى".¹²³ وهذا نموذج واضح عن المساعدات المقدمة في وقت الوباء مما يقوم دليلا على أن العادة منتشرة وأن من غيبها هي المصادر وكتابها؛ ربما، لانشغالهم بالمرض الجارف.

وما هو ثابت في هذا الموضوع هو أن التكافل والتضامن كان قويا في هذا المجتمع وأن أهل الحسبة؛ من أغنياء وعلماء وحكام ومتصوفة بل وحتى من عامة الناس وبعدهم الزوايا، ظلوا ملجأ الناس في مثل هذه الأزمات كما تكرر ذكر ذلك في كتب المناقب. ولا يكتفي الناس بالمساعدات التي يتلقونها لأنها دون شك تكون غير كافية، بل يبحثون عن أغذية بديلة تعوضهم عن فقدان الطعام واستحالة الحصول عليه حتى ولو توفر المال، وهذه أمثلة منها في مراكش الموحدية:

¹²⁰ المراكشي، المعجب، 287.

¹²¹ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، 266-267.

¹²² ابن عبد الملك المراكشي، الذيل، س5، ق2، 645-646.

¹²³ ثلاث رسائل، 208.

فيتور الزيتون الذي يعاد طحنه وأكله، ونبته تابودا (تشبه القصب وسيقانها مليئة بمادة بيضاء) التي تنبت على جوانب مجاري المياه ويطحن يابسها ويصنع منه خبز. وهي سم من السموم، والنارنج بصنفيه الحلو والمر، وعصيدة نوار الخروب،¹²⁴ وورق الكرنب،¹²⁵ والبقول، وقد اعتمد الناس عليها لمواجهة مجاعة 987هـ، فسمي العام عام البقول.¹²⁶ ونكتفي بهذه الأمثلة مع التأكيد على أن الأطعمة البديلة تتلون بألوان مناطق المغرب والأندلس وتمثل ملجأ السكان الأخير في أزمات الجوع بفعل الوباء أو الجفاف.

لقد واجه السكان أزمة الغذاء في زمان الأوبئة بالصبر ومساعدة الدول وأهل الحسبة وبعض الأغذية البديلة.

4.4. الحفاظ على الأمن

ذكرنا أعلاه أن الأوبئة تعرف أزمات اجتماعية من مظاهرها انتشار اللصوصية وقطع الطرق والفوضى لذلك سيكون الحفاظ على الأمن من أولى واجبات الحاكم. وقد احتفظت مصادرها خاصة في الأندلس بتدخل قوي للسلطة لضبط الأمن وتوقيف الفوضى.

ففي سنة 260هـ، كثرت الشكوى للأمير محمد الأموي من تطاول المفسدين فأمر صاحب سوقه بصلب أو قطع يد كل من ثبت في حقه شيء من ذلك، فكان كلما قدم أحد أمامه يأمره بكتب وصيته ثم يصلبه حتى بلغ عدد المصلوبين رقما كبيرا.¹²⁷ وفي سنة 303هـ ضبط الناصر الطرق ومنع قطاعها من مهاجمة المارة وجالبي الميرة.¹²⁸ وفي سنة 526هـ كثر أهل الشر بقرطبة فكان العامل المرابطي يقتلهم.¹²⁹ ويظهر من كلام ابن خاتمة أن أهل المناطق الحدودية (الثغور) في المرية منعوا من الخروج منها وإفراغها بسبب الوباء حتى لا تتعرض لاحتلال المسيحيين الذين انتهزوا الفرصة في بعضها ودخلوها.¹³⁰ وتشكل هذه الأمثلة بعض النماذج من تدخل الحكام لضبط الأمن، والأکید

¹²⁴ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدین، 325-326.

¹²⁵ التادلي، التشوف، 245-246؛ التميمي، الاستفادة، الجزء 2، 210-211.

¹²⁶ الناصري، الاستقصا، الجزء 5، 191.

¹²⁷ محمد بن حارث الخشني، قضاة قرطبة، نشر عزت الحسيني (القاهرة: مكتب نشر الثقافة الإسلامية، 1952)، 151.

¹²⁸ ابن حيان، المقتبس، الجزء 5، 110.

¹²⁹ ابن القطان، نظم الجمان، 226.

¹³⁰ "لو أبيح الفرار منه لجالا الكثير من أهل البلاد عنها، وتركوها نهبا للعدو ونهزة للمفترس، كما اتفق في بعض البلاد كما تأدى إلينا في هذا الحادث"، ثلاث رسائل، 249.

أن هناك حرصا دائما على ضبط الأمن سواء من قبل الدولة في حالة قوتها أو من الحكام المحليين أو من القبائل.

خاتمة

ظل الوباء يترصد بالمغاربة والأندلسيين ويزورهم بشكل دوري لكنهم لم يستطيعوا معرفته أو الاستئناس به مما جعله مصدرا للهلوع والرعب كما تظهر نبرة من يتحدثون عنه. وتسبب الرعب منه في خلق روح انهزامية عند السكان فواجهوه بأسلحة الجبناء من فرار إلى البوادي والجبال واحتجاب داخل البيوت ووقاية بكل الوسائل، وعجز الحكام عن خلق نموذج لمواجهة، وفشل الطب في صنع دواء ناجع لطرده، ولجأ الناس إلى الدعاء والتوسل والصلاة لرفعه. لكن الاستسلام لم يكن كاملا لبقاء بعض المقاومة التي شملت إطعام الجوعى ودفن الموتى وحفظ الأمن. لقد كان الوباء؛ حقا، يأخذ بمخنق المغاربة والأندلسيين.

البيبلوغرافيا

- ابن إبراهيم المراكشي، العباس. الإعلام بمن حل مراكش وأغمت من الأعلام. مراجعة عبد الوهاب بن منصور. الرباط: المطبعة الملكية، 1993.
- ابن أبي زرع، علي. الأنيس المطرب بروض القرطاس. الرباط: دار المنصور، 1972.
- ابن الخطيب، لسان الدين. الإحاطة في أخبار غرناطة. تحقيق محمد عبد الله عنان. القاهرة: مكتبة الخانجي، 1973.
- _____ . مقنعة السائل. مخطوط المكتبة الوطنية الإسبانية بمدريد رقم، Mss/5067/7.
- ابن الزبير. صلة الصلة. تحقيق أبو العلا العدوي. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 2008.
- ابن القطان المراكشي، حسن. نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان. تحقيق محمود علي مكي. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1990.
- ابن القوطية. تاريخ افتتاح الأندلس. تحقيق إبراهيم الأبياري. القاهرة: دار الكتاب المصري، 1989.
- ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي. بذل الماعون في فضل الطاعون. تحقيق أحمد عصام عبد القادر الكاتب. الرياض: دار العاصمة، 1411هـ.
- ابن حيان القرطبي. المقتبس في تاريخ الأندلس. تحقيق شاميتا وآخرين. مدريد: المعهد الإسباني العربي، 1979.

- ابن خلدون، عبد الرحمن. كتاب العبر وديوان المبتدئ والخبر. ضبط خليل شحادة. بيروت: دار الفكر، 2001.
- ابن عذاري المراكشي. البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين. تحقيق محمد زنيبر وآخرين. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1985.
- _____ البيان المغرب. تحقيق إيفارست ليفي-بروفنصال وجورج كولان. بيروت: دار الثقافة، 1983.
- الإفراني، محمد الصغير. نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي. تحقيق عبد اللطيف الشاذلي. الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1998.
- بولقطيب، الحسين. جوائح وأوبئة مغرب الموحدين. الرباط: منشورات الزمن، 2002.
- التادلي، يوسف بن يحيى. التشوف إلى رجال التصوف. تحقيق أحمد التوفيق. الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1997.
- التمنارتي، عبد الرحمن. الفوائد الجمّة في إسناد علوم الأمة. تحقيق اليزيد الرازي. بيروت: دار الكتاب العلمية، 2007.
- التميمي، محمد بن عبد الكريم. المستفاد في مناقب العباد. تحقيق محمد الشريف. الرباط: مطبعة طوب برس، 2002.
- ثلاث رسائل أندلسية في الطاعون الجارف. تحقيق محمد حسن. تونس: المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون "بيت الحكمة"، 2013.
- الجزائري، ابن حمادوش. الرحلة. تحقيق أبو القاسم سعد الله. الجزائر: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، 1983.
- حقي، محمد. الموقف من المرض. بني ملال: مطبعة مانيبال، 2007.
- خالد، بلعربي. "المجاعات والأوبئة بتلمسان في العهد الزياني". دورية كان التاريخية 9 (يونيو 2009): 19-29.
- الخشني، محمد بن حارث. أخبار الفقهاء والمحدثين. تحقيق لويس أبيلا ولويس مولينا. مدريد: معهد التعاون مع العالم العربي، 1991.
- _____ قضاة قرطبة. نشر عزت الحسيني. القاهرة: مكتب نشر الثقافة الإسلامية، 1952.
- خوجة، حسين. الأسرار الكمينية بأحوال الكينة كينة. تونس: بيت الحكمة، 1993.
- دوزي، رينهارت. تكملة المعاجم العربية. نقله إلى العربية وعلق عليه محمد سليم النعيمي. الجزء 7. بغداد: وزارة الثقافة والإعلام بالعراق، 1980.

- الزبادي المنالي، محمد. سلوك الطريق الوارية. تحقيق عبد الحي اليملاحي. تطوان: مطبعة الخليج العربي، 2012.
- السيوطي، جلال الدين. ما رواه الواعون في أخبار الطاعون. تحقيق محمد علي الباز. دمشق: دار القلم، 1418هـ.
- الشقوري. النصيحة. مخطوط المكتبة الوطنية الإسبانية بمدريد، رقم Mss/5067/8.
- الضعيف الرباطي، محمد. تاريخ الدولة السعيدة. تحقيق أحمد العماري. الرباط: دار المآثورات، 1986.
- العايشي، أبو سالم عبد الله. الرحلة العياشية. تحقيق سعيد الفاضلي وسليمان القرشي. أبو ظبي: دار السويدي، 2006.
- القادري، محمد بن الطيب. نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني. تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق. الرباط: دار المغرب، 1977.
- القلصادي، أبو الحسن علي. رحلة القلصادي. دراسة وتحقيق محمد أبو الأجفان. تونس: الشركة التونسية للتوزيع، 1978.
- مجموعة من المؤلفين. المعرفة الطبية وتاريخ الأمراض في المغرب. إعداد آسية بنعدادة. الرباط-الدار البيضاء: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية-مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود، 2011.
- مجهول. ذكر بلاد الأندلس. تحقيق لويس مولينا. مدريد: المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، 1983.
- مزدور، سميرة. "المجاعات والأوبئة في المغرب الوسيط (588-927هـ/1192هـ-1520م)". مذكرة ماجستير، كلية الآداب بجامعة منتوري، الجزائر، 2008-2009.
- المزكلي، سميرة. "المجاعات والأوبئة بالمغرب الوسيط (534هـ-776هـ/1139-1376م)". أطروحة دكتوراه، كلية الآداب ظهر المهران، جامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس، 2003-2004.
- الناصري، أحمد. الاستقصا في أخبار دول المغرب الأقصى. تحقيق محمد وجعفر الناصري. الدار البيضاء: دار الكتاب، 1997.
- الناصري، محمد بن عبد السلام. المزايا فيما أحدث من البدع بأم الزوايا. تحقيق عبد المجيد خيالي. بيروت: دار الكتب العلمية، 2003.
- الوزان، الحسن. وصف إفريقيا. ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1983.

الونشريسي، أحمد بن يحيى. المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب. تحقيق جماعي تحت إشراف محمد حجي. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1981.

Rosenberger, Bernard & Hamid Triki. "Famines et Epidémies au Maroc (16-17s.)". *Hespéris-Tamuda* XIV (1973): 109-76; *Hespéris-Tamuda* XV (1974): 5-104.